المقتطف

الجزء الثامن من السنة التاسعة عشرة

اوغسطس (آب) سنة ١٨٩٥ الموافق ١٠ صفر سنة ١٣١٣

غرائب العقول

ذكر الدكتور ستار استاذ امراض العقل والاعصاب في مدرسة الاطباء والجراحين بكولمبا انهُ يعرف فتاة خُوِّفت مرة بفارة بيضاء فصارت تراها تدبُّ على ثيابها وطعامها وعلى كل ما تلمسهُ . وهي الآن في حيرة عظيمة من جرّاء ذلك . وكثيرًا ما تقول انها تعلم علم اليقين ان تلك الفارة خياليَّة لا حقيقة لها ولكنها لا تزال تغسل يديها مرارًا كل يوم حاسبة انها نجستها . فهي بين عاملين الاول استدلال عقلي على ان الفارة ٱلَّتي تراها وهميَّة لا وجود لها والثاني اقتناع ذهني بانها موجودة امام عينيها

وقد يزول الاستدلال العقلي ويبقى الاقتناع الذهني وحدهُ كما حدث لامرأة اخرى كانت ترى اقزامًا وعفاريت امام عينيها ثم فقدت بصرها تمامًا ولم تعد ترى شيئًا بعينيها ولكنها بقيت ترى الاقزام والعفاريت وتعتقد بوجودها امامها مع انها كفيفة البصر وعلمها اليقين انها عمياء لم يكن يقنعها ان ما تراهُ وهم لا حقيقة لهُ

وذكر ايضًا انهُ يعرف رجلاً من التجار الواسعي الاختبار والثاقبي الذهن اصابهُ عارض فجائي فنسي قراءة خمسة من حروف الهجاء حتى اذا كان يقرأ وعرضت لهُ كلمة فيها حرف منها أُغلقت عليهِ قراءتها كانها مكتوبة باللغة الصينيَّة لا بلغتهِ ولم يعد قادرًا على قراءة الكلمات ٱلَّتي فيها اكثر من ثلاثة احرف ولا على فهم معناها ونسي الرقم ٦ والرقم ٧ والرقم ٨ من الارقام العدديَّة فلم يعُد قادرًا على كتابتها ولا على قراءتها ولا على عمل من الاعمال الحسابيَّة اذا كان فيهِ رقم منها

ونحن نعرف امرأة عجوزاً كانت ترى جوقاً من الابالسة يحملون فتاة الى سطح بيت امامها ويعذبونها عذاباً مبرحاً وكانت تلك العجوز تتألم من رؤيتها ألماً شديداً وتحث من حولها ان يذهبوا ويخلصوا الفتاة من ايدي معذبيها وظلت على مثل ذلك الى ان ادركتها الوفاة

وذكر ايضاً ان ساعياً من سعاة البريد طرد من خدمته لانهُ كان يتأخر دائماً في جمع الرسائل من صناديق البريد مع انهُ كان اميناً حريصاً على الوقت ساعياً في ارضاء مستخدميهِ جهدهُ . ثم علم بعد البحث انهُ كان يفتح صندوق البريد ويأخذ الرسائل منهُ ويقفلهُ وقبلما يبعد عنهُ كثيراً يخطر لهُ انهُ تركهُ مفتوحاً فيعود اليهِ ليقفلهُ فيجدهُ مقفلاً ثم يسير الى الصندوق التالي ويعود اليهِ ثانية كما عاد الى الاول وهلم جرًّا فيمضي الوقت قبلما يجمع الرسائل من الصناديق كلها ولولا توهمهُ انهُ تركها مفتوحة لكان في سعة من الوقت

وامثال ذلك كثيرة وعليها مدار الكلام في هذه المقالة . والبحث فيها ليس من قبيل الظنون والاحكام ألتي كان الكتّاب يعتمدون عليها بل من قبيل الحقائق المقرّرة ألتي اثبتها علماء الفسيولوجيا بالامتحان في الانسان وفي غيرهِ من انواع الحيوان . فقد بلغ من امر الفسيولوجيين والجرّاحين الآن انهم صاروا يعلمون موقع بعض الآفات العقليّة فيثقبون الجمجمة ويزيلون العلة من الدماغ فتزول الآفة بزوالها . وقد ثبت انهُ يمتدُّ من العين والاذن والجلد اعصاب خاصّة الى مراكز معلومة في الدماغ وكل ما يؤثر في العين والاذن والجلد يسير تأثيرهُ على هذه الاعصاب الى تلك النقط في الدماغ وحينئذٍ يشعر الانسان بهذا التأثير ويبقى ذكرهُ في نفسهِ متصلاً بالدقائق الدماغيّة ألتي شعرت بهِ . فاذا عرض لتلك الدقائق الدماغيّة عارض اتلفها بطل شعورها وزال ما كان محفوظاً فيها لتذكرهُ . واذا كان العارض خرّاجاً او جلطة دموية وازيل بعمليّة جراحيّة عاد الشعور الى ما كان عليهِ اولاً وعادت الذاكرة المختصة بهِ . واذا عرض لها ما يهيجها شعرت بما تشعر بهِ لو كان المهيج لها خارجيًّا ولو لم يكن كذلك

فالرجل الذي نسي خمسة من حروف الهجاء وثلاثة من الارقام العديدة اصيب بآفة في دماغهِ حيث ترسم صور هذه الحروف والارقام والفاظها ومعانيها . ثم اتسع نطاق هذه الآفة في دماغهِ حتى نسي كل ما حولهُ فنسي شوارع المدينة وازقتها وبيوتها ونسي بيتهُ ايضاً في جملتها . وشفي من ذلك كلهِ بعد بضعة اسابيع الا فقد ذاكرة الاحرف الخمسة والارقام الثلاثة فانهُ لم يشفَ منهُ كأن العلة بقيت محصورة في دائرة ضيقة من دماغه حيث ترسم هذه الاحرف والارقام

ومعلوم ان الخيال يصوّر للنفس صورًا لا حقيقة لها او لا وجود لها امام العين كما يحدث في احلام الليل وهواجس النهار والعقل يحكم في اليقظة انها خياليَّة فتزول من نفسها وقد يبقى رسمها في الدماغ فيتذكرها الانسان في احلامهِ او في هواجسهِ او في اليقظة اذا اراد ان يقص حلمهُ على غيرهِ او ان يسطرهُ على القرطاس ولكن حكم العقل قد يكون ضعيفًا لقلة تغذيتهِ او لآفة تعتريهِ كما يحدث للنائم فانهُ فلما يستطيع ان يحكم بان ما يراهُ في حلمهِ وهمٌ لا حقيقة لهُ وكما حدث للفتاة المذكورة في صدر هذه المقالة والمرأتين المذكورتين بعدها. فان صورة الفارة البيضاء وصور الفئران والابالسة بقيت في ذاكرتهنَّ ولم يستطعنَ نزعها مع انها خياليَّة لا حقيقيَّة . وقد تكون هذه الصور مسموعة كما تكون منظورة لان التأثيرات الدماغيَّة لا تقتصر على المرئيات بل تتناول ايضًا المسموعات والمشمومات والمذوقات والملموسات فقد يسمع الانسان صوتًا يناديهِ باسمهِ او يقول لهُ انك هالك او اذهب واقتل فلانًا او ابتعد عن الامر الفلاني او نحو ذلك من الاخبار والاوامر والنواهي فلا يرى لهُ بدًّا من العمل بها وقد يشمُّ رائحة طيبة او خبيثة دواماً او في اوقات معلومة وقد يشعر بطعم حلو او مرّ ولا حلو في فيهِ ولا مرٌّ على حدّ ما قالهُ المتنبي

ومن بكُ ذا فم مريض يجد مرًّا بهِ الماء الزلالا

وقد يسمع نغمة من الانغام فتحرك في يديهِ ورجليهِ حركات الرقص عن غير قصد منهُ

وكل ما فينا من تذكر الصور والاصوات والروائح والطعوم سببهُ ان التأثير الذي يحدث في نفوسنا من هذه المؤثرات يُحفَظ في دقائق خاصَّة من دقائق الدماغ فاذا عرض لها عارض اتلفها لم تعد تشعر بتلك المؤثرات واذا عرض لها عارض آخر فعل بها فعل المؤثرات نفسها شعرت كما تشعر بها

وهذا شأن اللغة بكل ما فيها من الاصوات والمعاني على اختلاف انواعها واشكالها فان لكل كلمة سواء سمعناها او قرأناها او لفظناها مقرًّا خاصًّا في دماغنا حتى اذا فقدنا قوة النطق بها او سماع صوتها او فهم معناها استطاع الجراح الماهر ان يضع اصبعهُ على ظاهر رأسنا ويقول ههنا مقرُّ العلة ثم يكسر الجمجمة وينزع من هناك خرّاجًا او جلطة دموية فتزول العلة ويعود الينا ما فقدناهُ بها

ذكر الدكتور مكبري في جريدة العقل ان طبيبًا عقد لسانهُ وفقد النطق ثلاثة اشهر نشق جمجمتهُ ونزع جلطة دموية من مركز النطق فانفكت عقدة لسانهِ ونطق حالاً

ومما اكتشفهُ الفيسيولوجيون حديثاً وحققوهُ ان مراكز الدماغ المختلفة متصل بعضها ببعض بالياف عصبيَّة وهذا هو سبب ائتلاف الافكار اي سبب تولد فكر من فكر آخر وصورة ذهنيَّة من صورة ذهنيَّة أُخرى . فاننا اذا رأينا وردة لم تؤثر فينا تأثيرًا واحدًا بل تأثيرات كثيرة بشكلها ولونها ورائحتها وبقي ذكر ذلك كلهِ في نفوسنا وقد بقي معهُ ذكر المكان الذي رأينا الوردة فيهِ والشخص الذي ارانا اياها والاحوال الَّتي رأيناها فيها حتى اذا شممنا رائحة الورد مرة أُخرى تأثَّر مركز الشم الذي حفظت فيهِ رائحة الورد وتأثرت معهُ سائر المراكز الَّتي حفظت فيها صورة تلك الوردة ولونها والاحوال التي رأيناها فيها اولاً وذلك بواسطة الالياف العصبيَّة المتصلة بين مركز الرائحة وبقيَّة المراكز . وقس على ذلك النرجس والياسمين والبنفسج وسائر الازهار التي لها رائحة خاصة بها فاننا اذا شممنا رائحة واحدة منها تصوَّرنا للحال شكلها ولونها ورائحتها واحوالاً اخرى متعلقة بها حسبما تكون علاقتها شديدة او ضعيفة . وهذه الصور المختلفة لا تتجلى امام العقل دفعة واحدة بل يتنقل الشعور اليها تنقلاً بسرعة تقاس بالثواني او بالكسر منها كما تقاس سرعة الماشي والراكب . وهذه السرعة لا تكون واحدة في جميع الاشخاص ولا في الشخص الواحد في كل الاوقات بل هي اسرع في الشبان منها في الكهول وفي النساء منها في الرجال وفي النبهاء منها في الخاملين . وتختلف باختلاف بعض المؤثرات فالاشربة الروحيَّة تبطئ الحس وتسرع الحركة اولاً ثم تبطئها والشاي يسرع الحس ويبطئ الحركة والمورفين يسرع الحس ثم يبطئهُ كثيرًا وهلمَّ جرًّا

الآن الآفات الدماغيَّة قد تبطئ ائتلاف الافكار هذا او تزيلهُ تماماً . ذكر الدكتور سنار انهُ يعرف رجلاً اعتراهُ عارض دماغي فصار ينظر الى ابنهِ ولا يعرفهُ . وذكر ايضاً انهُ رأى رجلاً وسألهُ عن صناعتهِ فأخذ الرجل يفكر ويقول ان صناعتي موسومة الآن امام عيني بكل علاقاتها ولكنني لا استطيع ان اتذكر اسمها . وما ذلك الاَّ لان الاعصاب الموصلة بين صور حانوتهِ وادواتهِ وبين المركز الدماغي الذي فيهِ اسم الصناعة اصيب بآفة فلم تعد تنقل التأثير من مركز الى آخر . وهذهِ الآفة قد تكون دائمة وقد تكون وقتيَّة كما اذا كثر تعب الدماغ بالشغل العقلي فان ائتلاف الافكار يضعف حينئذٍ كثيرًا لكن هذا الضعف لا يدوم بل يزول حالما يغتذي الدماغ الاغتذاء الكافي كما هو معلوم عند الذين يطلبون العلم ويدرسون كثيرًا فان ائتلاف الافكار يقوى فيهم في الصباح قبلما تتعب ادمغتهم ويضعف في المساء حينما تتعب ويقل غذاؤها

وبذلك يعلل مضاء قريحة الشعراء في الصباح وسرعة تصورهم وسهولة جري الخيال في مضمار الوصف حينئذٍ

ومن الناس من يسمع صوتاً فيرى لوناً مخصوصاً او يرى لوناً فيسمع صوتاً مخصوصاً لعلاقة بين مراكز حفظ الاصوات ومراكز حفظ الالوان . من ذلك ما جاء في جريدة اللانست الطبيَّة وهو ان رجلاً عمي وبقي يرى الواناً للاصوات ٱلَّتي يسمعها فيرى صوت الالف احمر وصوت الياء اسود وصوت الواو ابيض. وقد شرحنا هذا الموضوع بالاسهاب في مجلدات المقتطف الماضية وذكرنا لهُ امثلة كثيرة .ويقال ان اثني عشر نفساً من كل مئة نفس يرون شيئاً من الالوان مع الاصوات ٱلَّتي يسمعونها لكننا لم نسمع عن احد منهم في هذه البلاد الاَّ عن فتاة في الاسكندريَّة (انظر الصفحة ١٥٩ من المجلد الثامن الكبير والصفحة ٣٣٦ من المجلد الثاني عشر)

وقد تهيج الاصوات تأثيرات اخرى غير رؤية الالوان كالحزن والفرح والغيظ والرضى وقد شاهدنا اناساً يكاد يغمى عليهم اذا سمعوا صوت اداة حادَّة على الزجاج واناساً آخرين لا يطيقون صوت بعض الباعة الذين يجرون في اصواتهم على نغم واحد في شوارع القاهرة وغيرهم ممَّن اذا سمعوا صوتاً شجيًّا اوشموا رائحة ذكية يغمى عليهم. وكثيرًا ما ينسب ذلك الى تأثير ديني وما هو من الدين في شيءٍ

هذا من قبيل ما يتعلق ببناء الدماغ وعلاقته بالقوى العقليَّة. وهناك مباحث اخرى من هذا القبيل مبنيَّة على مراقبة نمو القوى العقليَّة في الصغار فان الطفل يكون في اول امره كادنى انواع الحيوان الاعجم لا يدرك شيئاً ثم تظهر قواهُ العقليَّة رويدًا رويدًا وقد تجري على الاسلوب العادي في النموّ والارتقاء وقد يقف بعضها عن النمو او يتأخر عن غيره فيختلف الناس في قواهم العقليَّة اختلافاً عظيماً فيصح ان يقال

انما نحن في اختلاف عقولٍ مثلما نحن في اختلاف وجوهِ

والغالب ان الذين يعتريهم هذا الخلل العقلي يدركون الجزئيَّات ولا يدركون الكليات ممَّا يدل على ان ادراك الجزئيَّات يكون اولاً ثم يتلوهُ ادراك الكليات. فترى الواحد منهم يمشي في الشمس حاسرًا فيصاب بصداع ويأكل المآكل الضخمة فيصاب بتخمة وينام في الخلاء مكشوفاً فيصاب بغص واسهال ويكرر ذلك مرارًا فتنتج لهُ النتيجة ٱلَّتي نتجت اولاً ولكنهُ لا يستدلُّ من هذه الافعال الجزئيَّة على القواعد الكليَّة وهي ان المشي في الشمس والرأس حاسر يجلب الصداع والمآكل الضخمة تجلب التخمة وهلمَّ جرًّا

وقد يكون قادرًا على ادراك الجزئيات والكليات ولكنهُ يقصر عن حصر فكرهِ في موضوع واحد ولذلك لا ينجح في عمل من الاعمال لانهُ لا يقدر ان يوجه قواهُ العقلية كلها اليهِ بل يبقى متقلبًا كريشة بهب الريح طائرة لا تستقر على حال من القلق . ومن هذا القبيل كثيرون من الشبان الذين درسوا في المدارس ثم لم يستطيعوا ان يفلحوا في عمل من الاعمال لانهم لا يكادون يجمعون قواهم ويوجهونها الى ذلك العمل حتى يملُّوا منهُ ويتركوهُ . وهذا ليس كسلاً بل هو قصور في نمو القوى العقلية

وقد يقتصر قصور العقل على جهل النسبة بين الحوادث والاعمال او بين الامور النظرية والعملية . والمصابون بذلك تكثر آمالهم واوهامهم فيخترعون اختراعات لا يمكن العمل بها ويرتأون آراء لا يمكن اجراؤها . ولا يرون لخيبتهم سببًا الا جهل الناس لهم او حسدهم منهم او تعصبهم عليهم . وقد يشتدُّ بهم هذا الحال حتى يصيروا يحسبون الناس كلهم اعداء لهم ناصبين لهم الفخاخ لكي يصطادوهم بها

ومن الغريب ان نوابغ الدهر الذين فاقوا غيرهم في الشعر او الفناء او الحساب او غير ذلك من المزايا العقلية لم يكونوا غالبًا من الذين توازنت فيهم القوى العقليَّة في نموها بل من الذين نما جانب من ادمغتهم على نفقة جانب آخر فقوي عقلهم من جهة وضعف من أُخرى كما ابنا ذلك في مقالة مسهبة موضوعها قرائح الصغار وسن الاشتهار وفي مقالة اخرى موضوعها القرائح والجنون وفي مقالة ثالثة موضوعها نابغة الحسَّاب

وقد قسم المسيو شاركو الناس الى ثلاثة اقسام قسم يتذكر المرئيات وقسم يتذكر المسموعات وقسم يتذكر المفعولات فالاول اقدر على تذكر ما يراهُ منهُ على تذكر ما يسمعهُ او ما يفعلهُ والثاني اقدر على تذكُّر ما يسمعهُ والثالث على تذكر ما يفعلهُ . وسبب ذلك نمو جانب من الدماغ اكثر من جانب آخر ونمو الاعصاب الموصلة بين اجزائهِ المختلفة . وقد ثبت هذا بالامتحان في امرأة عمياء طرشاء كانت شديدة الشعور باللمس فلما ماتت فتح دماغها فوجدت المراكز ألَّتي فيها قوى البصر والسمع ضامرة والمراكز ألَّتي فيها قوى اللمس قويَّة

ومن غرائب العقول ما يرى في بعض الناس من عدم التوازن العقلي ولا سيما في اولاد السكيرين والعصبيين فانهم قد يكونون من اذكياء العقول النابغين في العلوم والفنون ولا ينقصهم شيء لا من الشعور ولا من الذاكرة ولا من الادراك فيعتريهم بغتة ما يحملهم على اعمال شاذَّة تدلُّ على عدم التوازن في عقولهم مثال ذلك ان امرأة عصبيَّة

توهمت ان نفسها ينقطع ان لم تراقبهُ مراقبة تامة فبقيت ثلاثة اشهر ولا همَّ لها الاَّ مراقبة كل زفرة وكل شهقة من زفيرها وشهيقها واذا حاولت صرف ذهنها عن ذلك اضطربت اضطراباً عظيماً واصابها شيء من اليأس حتى تعود الى مراقبة نفسها ودامت هذه الحال ثلاثة اشهر ثم زالت من نفسها بغتة

ومن قبيل ذلك ما يحدث لبعض الناس من الرغبة الشديدة في عمل اعمال لافائدة منها او لا طائل تحتها كما حدث لفتاة قام في نفسها ان لا بدَّ لها من عدّ كل ما تراهُ او تسمعهُ فكانت اذا دخلت غرفة تشرع تعدُّ ما فيها من الاثاث واذا تكلمت تعدُّ الكلمات الَّتي تنطق بها كلمةً كلمة ولو ضاع المعنى وكما حدث لامرأةٍ اخرى قام في نفسها ان لا بدَّ لها من ان تفرز ابرة في عين شخص آخر ثم جعلت توَّنب نفسها على هذه الرغبة وشعرت كأنها اخطأت الى ذلك الشخص فطلبت منهُ الصفح . ولما عاتبها على رغبتها هذه أسقط في يدها واشتدَّ بها اليأس والقنوط . وكانت اذا رأت احداً من ذويها نازلاً في سلَّم اشتهت ان تدفعهُ من ظهره لكي يقع ولا تفعل ذلك ولكنها تلوم نفسها كانها فعلتهُ . واذا رأت بساطاً معوجاً قالت في نفسها ان سيعثر بهِ احد ويقع فتبتهج وتبرق اسرتها ثم يخطر لها انها اشتهت الشر لغيرها فتلوم نفسها لوماً شديداً وتمهِّد البساط وتلتفت اليهِ فلا يرضيها فتمهدهُ ثانيةً وثالثة وهلمَّ جرًّا وقد تمهدهُ عشرين مرةً او ثلاثين وتبقى تحسب ان لا بدَّ من ان يعثر بهِ احد بسوء صنيعها . وترتب الامتعة الَّتي في غرفتها مراراً كثيرة كل يوم واذا حاولت ان تقنع نفسها بان الامتعة مرتبة ولا داعي لترتيبها ثانيةً اصابها كدر وخفقان شديدان . وخادم البريد المذكور في صدر هذه المقالة من هذا القبيل وامثلة ذلك كثيرة لا نطيل الكلام فيها ومرجعها كلها الى ان مبدأ الشك الذي لا يخلو عقل منهُ يقوى في عقول هؤلاء الناس لآفة او لضعف في تغذية الدماغ فيتغلب على بقيَّة الاحكام العقليَّة ولا سيما على القوة المتصرفة او تضعف المتصرفة عن التغلب عليهِ

وغنيٌّ عن البيان انهُ ما من عقل الاَّ وهو عرضة للمخاوف والاوهام اما العوارض التي سببها علة دماغيَّة فلا تزول الاَّ بشفاء العلة او بازالتها فيجب ان تقوَّى القوة المتصرفة في النفس بالتربية حتى تتغلب على الخوف والوهم ولا تسلم الاَّ بالحقائق